الدبلوماسية فى الاسلام

العلائق بين مصر و بيزنطية

فى عهـــد الدولة الفاطمية

للاستاذ محمد عبد الله عنان

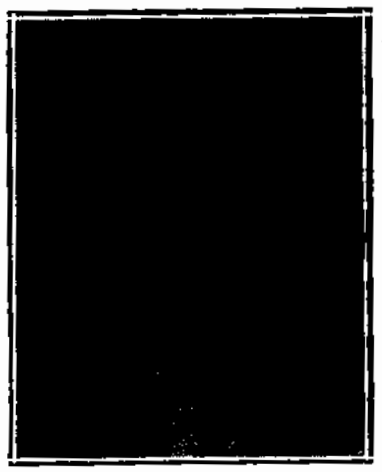

كانت بغـداد محور السياسـة الاسلاميـة فى المشرق يوم كانت الدولة العباسية فى ذروة قوتها وفتوتها ؛ وكانت الدولة البيزنطية تتجه يومئذ ببصرها إلى بغـداد قلب الاسلام النابض ، ترقب حركاتهـا ومشاريعها ، وتتحوط لفوراتها وغزواتها . وكانت المعارك تضطرم بين الدولتين بلا انقطاع تقريبا أيام الرشيد والمأمون والمعتصم ؛ ولـكن قوة الدولة العباسية لم يطل أمدها ؛ فمنذ أواخر القرن التاسع تسرى إليها عوامل الانحلال والوهن ، وتخبو فيها فورة النضال والغزو ، ويتجه بصر الدولة البيزنطية إلى قوة ناشئة أخرى على مقربة من حدودها الجنوبية . ذلك أن مصر ، التى بقيت زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية ، غدت فى ظل الولاة الأقوياء دولة شبه مستقلة ، وأخذت تجيش بمختلف الاطماع والمشاريع ، وألفت الدولة البيزنطية فى قيام الدولة الحمدانية بالشام ، وقيام الدولة الطولونية ثم الدولة الاخشيدية بمصر ، مواطن جديدة للخطر يجب اتقاؤها . وأخذ ميدان النضال بين الاسلام والنصرانيـة يتحول من سهول أرمينية وأواسط الأناضول إلى سهول كليكية وشمال الشام . ولما قامت الدولة الفاطمية بمصر ، رأت الدولة البيزنطية من قوتها وغناها ووفره جيوشها وأساطيلها ما ينذر بتفاقم الخطر ، وأدركت أنها تواجه على يد هذه الدولة القوية فورة اسلامية جديدة تضطرم قوة وفتوة وطموحا ، وأخذت ترقب حركات الدولة الجديدة ومشاريعها فى يقظة وجزع .

وشغلت الدولة الفاطمية مدى حين بخطر القرامطة الذى كان يهددها فى موطنها الجديد ، ويكاد ينذرها بالمحو والفناء العاجل . وألفت الدولة البيزنطية من جانبها فيما أثارته غزوات القرامطة للشام من الاضطراب والفوضى ، فرصة للاغارة على الشام ودفع حدودها إلى الجنوب ؛ وكانت الدولة الحمدانية فى حلب قد اضمحلت ولم تقو بعـد على رد الغزاة من الشمال ، ولم تلبث أن انضوت تحت لواء الروم (البيزنطيين) وتعهدت لهم بأداء الجزية إستبقاء لحياتها ، وإتقاء لسطوة الدولة الفاطمية الجديدة . وبينما كان القرامطة يزحفون على مصر ، وجيوش المعز الفاطمى تدفعهم عنها ، غزا الروم الشام ، وعاثوا فى سواحله واستولوا على انطاكية ، وهزموا الجيوش الفاطمية أولا ، ثم عادوا فارتدوا أمامها تحت أسوار طرابلس ، واختتم عهد المعز لدين الله ، والروم يبسطون سلطانهم على قسم كبير من شمال الشام .

وفى عهد العزيز بالله استؤنف النضال بين الدولتين ؛ وكان خطر القرامطة قد خبا وتحطم تحت ضربات الدولة الفاطمية . وألفى الفاطميون والروم أنفسهم فى سهول الشام وجها لوجه ؛ وكانت الدولة البيزنطية تجوز فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر مرحلة جديدة من القوة والنهوض فى عصر الأسرة البسيلية ، ولا سيما فى عهـد الامبراطور باسيل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥ م) ، معاصر العزيز بالله وولده الحاكم بأمر الله ؛ وكانت السياسة البيزنطية كعادتها تشجع كل عناصر الانتقاض أو الخروج فى المملكة الإسلامية ؛ فلما هبت الجيوش الفاطمية بغزو حلب واستغاث بنو حمدان بحلفائهم الروم ، سار الروم لقتال المصريين ونشبت بينهما معركة طاحنة على مقربة من أنطاكية (٣٨١ هـ - ٩٩١ م) ، فهزم الروم هزيمة شديدة ؛ وخشيت السياسة البيزنطية عواقب هذا الفشل ، فسار الامبراطور باسيل الثانى بنفسه إلى الشام وغزا حمص وأعمالها ، وبسط سلطانه على معظم سواحل الشام ؛ وارتاعت الخلافة الفاطمية لهذا التطور الخطير فى حوادث الشام ، وهم العزيز بالمسير بنفسه إلى قتال البيزنطيين ، ولـكن الموت أدركه فى الطريق ؛ وخلفه ولده

الحاكم بأمر الله طفلا ، وتولى تدبير شؤون المملكة وصيه برجوان الصقلبي ؛ واضطربت حوادث الشام حينا ، وشجعت السياسة البيزنطية قيام الثورة في صور ، وسار الروم في البر والبحر لمؤازرة الثوار ؛ ولكن برجوان كان رجل الموقف ، فبعث إلى الشام بجيش كبير ، استطاع أن يخمد الثورة ، وأن يهزم البيزنطيين في عدة مواقع (٣٧٨ هـ - ٩٩٨ م) ، واضطر باسيل الثاني أن يسير بنفسه إلى الشام مرة أخرى . ولكنه ما لبث أن اضطر إلى العودة إلى قسطنطينية ليتأهب لرد خصومه البلغار الذين هددوه بالغزو من الشمال :

وهكذا لبثت الشأم مدى حين ميدان النضال بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية . كانت السياسة البيزنطية ترى في قيام الدولة الفاطمية وتوطدها بمصر والشام خطرا جديداً عليها ، وتحاول أن تغالب هذا الخطر ما استطاعت ؛ وكانت الدولة الفاطمية من جانبها تعمل لتوطيد حدودها الشمالية ورد الخطر البيزنطي عنها ، ولم تكن تجيش في ذلك باكثر من نزعة دفاعية ، بينما كانت الدولة البيزنطية تجيش في عهدها الجديد بنزعة إلى الفتح والتوسع . وكانت الخلافة الفاطمية تتوق الى اتقاء الأحداث والحروب الخارجية لتتفرغ إلى تنظيم شؤونها الداخلية ؛ فلما هزمت الجيوش الفاطمية جيوش الامبراطور في الشام واستطاعت بذلك أن تثبت تفوقها العسكري ، انتهز مدبر الدولة برجوان هذه الفرصة ليعقد الهدنة مع الدولة البيزنطية ، فبعث الى الامبراطور يقترح عقد الصلح والمهادنة ، فاستجاب باسيل الثاني لدعوته ، وانفذ سفارة إلى بلاط القاهرة ؛ واحتفى البلاط الفاطمي بالسفير البيزنطي احتفاء عظيما وزين الديوان الخلافي لاستقباله زينة تنوه الرواية بفخامتها وروعتها ؛ وانتدب برجوان اريسطيس بطريرك بيت المقدس وخال الأميرة ست الملك ابنة العزيز بالله وأخت الحاكم بأمر الله للسير مع السفير البيزنطي وتقرير شروط الهدنة مع القيصر وعقد أواصر الصداقة بين الدولتين ؛ فسار اريسطيس إلى قسطنطينية ، وقام بالمهمة ؛ وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين ؛ وأقام اريسطيس في عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفي ؛ ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه السفارة ولكن المرجح انها وقعت في أواخر سنة ٣٨٩ أو أوائل سنة ٣٩٠ (سنة ١٠٠٠ م)

وشغلت الدولة البيزنطية مدى حين بشؤونها الداخلية وحروبها في البلقان وأرمينية ، وقنعت من الشام بانطاكية ، وهدأ النضال بين الدولتين حيناً ، وتحسنت العلائق بينهما ؛ ولكن سياسة الحاكم بامر الله إزاء النصارى ، واشتداده في مطاردتهم ، وما اتخذه من الاجراءات العنيفة لهدم الكنائس والأديار ، ولاسيما كنيسة القيامة (القبر المقدس) ببيت المقدس أثارت حفيظة السياسة البيزنطية . وحفيظة الكنيسة الشرقية التي كانت تعتبر نفسها حامية النصرانية في المشرق ؛ بيد أن الدولة البيزنطية لم تستطع يومئذ أن تتدخل في سير الحوادث . وكانت الأميرة ست الملك أخت الحاكم تخشى عواقب هذه السياسة العنيفة وتجاهد في تلطيفها ، وكان لها حسبما تؤكد الرواية أكبر يد في تدبير مصرع أخيها وانقاذ الخلافة الفاطمية من عواقب هذه السياسة الخطرة . فلما انتهت المأساة بذهاب الحاكم ، وقام ولده الظاهر في عرش الخلافة بتدبير ست الملك ورعايتها ، عادت الخلافة الفاطمية في الحال إلى تسامحها المأثور نحو النصارى ، وردت اليهم حرياتهم وحقوقهم ، وسمح لهم بتجديد ما درس من كنائسهم ، ولاسيما كنيسة القيامة ، وألفت ست الملك الفرصة سانحة لتجديد الصداقة والمهادنة مع الدولة البيزنطية ، فبعثت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيرا إلى باسيل الثاني ليعمل على عقد أواصر التفاهم والصداقة بين الدولتين سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٤م) ويطلعه على ما اتخذه بلاط القاهرة من الاجراءات لتحرير النصارى ورفع الارهاق عنهم وحمايتهم في أموالهم وأنفسهم ؛ ولكن الأميرة ست الملك توفيت قبل أن يستطيع السفير تأدية مهمته ، ورده بلاط قسطنطينية بلطف ، فعاد ادراجه ، ولم يمض قليل حتى توفي باسيل الثاني (١٠٢٥ م) .

ولكن الخلافة الفاطمية آثرت أن تمضي في سياستها الودية نحو الدولة البيزنطية ؛ ومع أن الجيوش البيزنطية اشتبكت في الأعوام التالية في عدة معارك وحروب محلية في حلب وانطاكية مع الأمراء العرب المحليين ، وهزمت أمامهم غير مرة ، فان حكومة القاهرة لم تشأ ان تتدخل في تلك المعارك ولا أن تنتهز تلك الفرصة لمحاربة البيزنطيين ؛ ووقعت المفاوضات بين الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله والامبراطور رومانوس الثالث لعقد معاهدة

صداقة بين الدولتين ، واشترط الامبراطور لعقدها ان يتولى اعادة تعمير كنيسة القيامة وان يعمر النصارى ماشاءوا من كنائسهم الدارسة ، وان يقيم بطريركا من قبله لبيت المقدس ، وان تمتنع حكومة القاهرة من التعرض لشؤون حلب أو مصايرها باعتبارها داخلة فى حماية الامبراطور وتؤدى له الجزية ، وأن تمتنع عن نجدة صاحب صقلية المسلم إذا هاجمته الجيوش البيزنطية ؛ ولكن الظاهر رفض التخلى عن حلب باعتبارها عاصمة إسلامية جليلة ؛ وطالت المفاوضات بين الفريقين ، وانتهت بعقد معاهدة صداقة بينهما ، سمح فيها للامبراطور ان يتولى تعمير القبر المقدس ، وللنصارى أن يعمروا كنائسهم وأن يعود منهم من أسلم كرها إلى دينه ؛ وأن يطلق الامبراطور سراح الأسرى المسلمين لديه ، وان يعيد مسجد قسطنطينية كما كان ويسمح فيه بالأذان وبالخطبة للظاهر ؛ بيد أن الكنيسة الشهيرة لم يجدد بناؤها إلا بعد ذلك بنحو عشرة أعوام فى عهد المستنصر بالله

وفى عهد الخليفة المستنصر بالله ولد الظاهر اضطربت شئون الخلافة الفاطمية ، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية ، وعانت مصر فى أوائل هذا العهد أروع مصائب الغلاء والقحط والوباء مدى أعوام ثمانية تعرف بالشدة العظمى (٤٤٦-٤٥٤ هـ) وأرسل المستنصر بالله إلى الأمبراطور قسطنطين التاسع أن يمده بالغلال والأقوات ، وتم الاتفاق بينهما على شروط هذه المعاونة ، ولكن الأمبراطور توفى قبل تنفيذ الاتفاق ، فخلفته الأمبراطورة تيودورا ، واشترطت لتنفيذه شروطا جديدة أباها المستنصر ، واضطربت علائق الدولتين ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك شديدة فى البر والبحر ؛ وفى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضى أبو عبد الله القضاعى ليحاول تسوية العلائق واستئناف الصداقة ؛ ولكن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ورأت أن تتفاهم معهم ، وأخفق سعى السفير المصرى ؛ وكانت فورة السلاجقة قد اضطرمت قبل ذلك بالمشرق ، وأخذت تنذر باجتياح الشأم ، وتطورت حوادث الشام فى الوقت نفسه تطورا سيئا ، واستولى الزعماء العرب على قواعده وثغوره ، فانتزعت حلب من يد الخلافة الفاطمية نهائيا ، وكادت دمشق وفلسطين تخرج عن قبضتها ، وتضعضعت قوى الدولة فى الداخل والخارج ؛ ثم كانت وثبة السلاجقة نحو المشرق واستيلاؤهم على فلسطين ودمشق ؛ وأعقبت ذلك فورة من الغرب كانت أخطر ما عرفت الأمم الاسلامية : تلك هى ثورة الحروب الصليبية التى اضطرمت منذ أواخر القرن الحادى عشر ، وسرعان ما ظفرت بانتزاع الشام وفلسطين من قبضة الاسلام ؛ وحلت المملكة اللاتينية فى بيت المقدس مدى حين ، وقامت الامارات النصرانية فى الشام حاجزا بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية ، وتحول مجرى العلائق الدبلوماسية بين الاسلام والنصرانية ، وافتتح بينهما عهد طويل من النضال المضطرم ؛ وانحدرت الدولة الفاطمية إلى مرحلة الانحلال الأخير ، كما انحدرت الدولة البيزنطية خصيمتها ومنافستها القديمة إلى مرحلة مماثلة من الضعف والانحلال

محمد عبد الله عنان

لكل جديد لذة ورواج

إدارة نشر وترويج الصحف الاسلامية تقدر هذه الحقيقة فتبادر دائما بان تسبق غيرها وتقدم لعملائها كل جديد من الصحف والكتب الحديثة حال ظهورها قبل أن تتداولها الأيدى . لانها تضع مصلحة عملائها نصب عينها وتسهر دائما على أن تجلب لهم كل ما فيه يسرهم ورخاؤهم لاعتقادها أن فى يسرهم ورخائهم يسرا ورخاء لها . وأن تقدمهم يعود عليها كما يعود عليهم بالخير والبركة . فما تزال دائبة على أن تنتهز لعملائها أعظم الفرص التى تكسبهم الشهرة والرواج ودوام الحركة

فبادر حالا بأن يكون اسمك فى قائمة عملائها العديدين فى الشرق والغرب ، وقدم لها الرصيد الكافى لطلباتك

فكل طلب لا يكون مصحوبا بالنقود لا يلتفت اليه .

والادارة لا ترسل بضائعها بطرق التحويل ما لم يصلها معظم الثمن ، وأسعارها محددة لا تقبل مساومة

شعارها دائما : الدين المعاملة ، والتعاون على البر والتقوى